يتجاوز بضع مئات اما الان (١٨٩٢) فقد بلغ عددهم اربعين الفا ، واصبحوا يسيطرون على التجارة في المدينة ولم يعد اليهود اقلية مضطهدة وجبانة . وانما يبدو انهم سادة المدينة . واشار الى دوره ودور الجمعية التي يعمل لحسابها (صندوق الاستكشافات الفلسطينية) في تشجيع هذه التطورات فقال : « اعتقد بأنني استطيع القول دون تبجح انه كان لي (ولاخرين غيري) دور ما في هذه الحركة . ففي اول كتاب نشرته بعنوان (مخيمات في فلسطين) حاربت الفكرة القائلة ان فلسطين لم تعد قطرا يصلح للسكنى ، وادى ذلك الى عرض محرر صحيفة « ذي جيويش كرونيكل » علي أن اكتب مجموعة من المقالات عن الاستعمار اليهودي في فلسطين . ويبدو ان هذه المقالات لفتت انتباه لورنس اوليفانت(١٩) وقدمت له سلسلة من الاقتراحات يبدو انه قبلها كأساس ، ولكنه استعاض عنها عن اقتراحي اقامة مستعمرة في الجليل باقتراح من عنده هو لاقامة مقاطعة يهودية في جبال جلعاد (البلقاء وعجلون) ولكنني لا اعتقد بأن ذلك ممكن ، لان السلطان لن يوافق على اقامة دولة داخل الدولة ، علاوة على أن المنطقة بعيدة وستكون عرضة لهجمات البدو ، والمواصلات بينها وبين البحر طويلة ورديئة مما يجعلها غير صالحة لان تكون مركزا طبيعيا لشعب يهودي جديد . واقترح المستر اوليفانت مد خطوط سكة حديدية عبر هذه الجبال لا يمكن لاي مهندس ان يحاول مدها . والخط الوحيد الذي يرجح ان ينجح هو الخط الذي رسمته في مراسلاتي عام ١٨٧٨ ، ويمتد من قناة السويس الى العاصمة دمشق مرورا بمرج ابن عامر ووادي اليرموك » . واشاد كوندر باليهود في هذا المضمار فقال : «بينما كان الناس يتكلمون كان اليهود انفسهم يعملون، والاراء التي كانت عندما كتبتها قبل اثني عشر عاما تبدو من شأن المستقبل البعيد اصبحت حقائق بفعل الاشخاص الذين يهمهم الامر اكثر من غيرهم ... والسكة الحديدية التي اقترحتها قد بدأ العمل فيها والمستعمرات التي اوصيت باقامتها وبزراعة الكرمة والزيتون والحبوب والقطن والفواكه فيها ، قد اخذت تظهر الى حيز الوجود في فلسطين. ويبدو

١٩ ــ كاتب ودبلوماسي بريطاني تخلى عن منصبه ليتفرغ للدعاية الصهيونية في القرن التاسع عشر .

اننا سنرى سكة حديدية في فلسطين في العام القادم الامر الذي من شأنه ان يزيد من عدد السكان وينشط التجارة » .

ولم يغب عن بال كوندر ــ الضابط في سلاح الهندسة البريطاني ــ الاهمية الاستراتيجية لخط السكة الحديدية فقال : « ان هذا الخط سيزيد من احتمال نشوب معركة كبيرة في مجدو ــ ميدان القتال القديم ــ في حالة نشوب حرب لان السيطرة على خط السكة الحديدية الوحيد في البلاد ستكون الهدف الحتمي الوحيد لاي مخطط استراتيجي ». ولم ينس كذلك الهدف الاستعماري وهو الابعد مدى فقال : « الاعتبار الثاني وهو سلمي الى حد كبير ، هو ان الخط الحديدي ستتبعه شبكة من الطرق البرية تكون بمثابة روافد له ، وسيفتح جبال جلعاد امام زارعي الكرمة والحبوب(والمقصود هنا اليهود طبعا) . اما السكان القلائل من البدو العرب فسينسحبون الى الجنوب والشرق، وستنمو القرى المتفرقة الصغيرة لتعود مدنا مزدهرة كما كنا نعرف انها كانت بين العهدين المسيحي والاسلامي »(٢٠).

واتى كوندر في محاضرته على ذكر الهجرة اليهودية واثرها على التكوين السكاني في فلسطين وهي نقطة جديرة بالملاحظة قال عندها : « حدثت تغيرات كبيرة في التكوين السكاني لفلسطين بزيادة العنصر اليهودي والمسيحي زيادة كبيرة واضمحلال السكان المسلمين الاقوياء ، وزيادة التعرف على الحضارة الغربية التي كانت طلائعها في بعض المناطق فرق المسح التي ترأستها مدة ست سنوات ... في عام ١٨٧٢ لم يكن في فلسطين من ملاك الاراضي الزراعية الاوروبيين غير اثنين فقط ولكن بالتدريج ارغم الفلاحون ــ كما حدث في عهد نحميا ــ على بيع انفسهم عبيدا للمرابين الذين استرهنوا الارض ، او على بيع اراضيهم للمستعمر الالماني واليهودي ، وقد تضرروا بسبب الحرب والقحط الذي تبعها الى حد لا يعرف عنه الانجليز شيئا يذكر . »

وانتقل كوندر في النهاية الى الحديث عن المستقبل الذي يتصوره لفلسطين ، فقال : « ان الذي نتوقع ان نراه في فلسطين ــ اذا كان مستقبلها سلميا ــ هو زيادة تدريجية في عدد السكان

٢٠ ــ The City and the Land.